الخطاب الدرامي والخطاب المسرحي
- خطاب واحد أم خطابات متعددة -

أ. خـرواع توفيـق
قســم الفنون ، كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة جيلالي ليابس ، سيدي بلعباس

الملخص:

يعتبر الأدب المسرحي من أكبر صور التعبير الأدبي التي لازمت الإنسان في محاولة بحثه عن فهم الواقع، والعلاقة الموجودة بينه وبين الطبيعة من جهة، وبينه وبين الفكر والفلسفة من جهة أخرى. ولعلّ أهم ما تداولته الدراسات الحديثة والمعاصرة في مجال الأدب المسرحي هو إشكالية خطابه المتعدد الأوجه، فمنهم من نظر إليه نظرة أدبية، ومنهم من حاول أن يدرسه في قالب تداولي، ومنهم من ربطه بالدراما والمسرح.

فما معنى الخطاب في حقل الدراسات اللغوية المعاصرة؟ وما علاقته بالدراما من جهة ؟ وبالمسرح من جهة أخرى؟

وهل الخطاب الدرامي والخطاب المسرحي خطاب واحد؟ أم أن لكلّ واحد أوصافه ومزاياه النصية والدلالية؟

1- الخطاب وبناء المعنى:

الخطاب لغة:

جاء ذكر كلمة الخطاب في لسان العرب لابن منظور بعدة معان من أهمها: خَطَبَ ، الخَطْبُ: الشأن أو الأمر صغر أو عظم، وقيل هو سبب الأمر،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقال : ما خطبك؟ أي: ما أمرك؟ وهذا خطب جليل أي أمر جليل، والخَطْبُ هو الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والخِطَابُ هو حصول الحدث بين أكثر من طرف بقصد الإفهام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطاباً، وهما يتخاطبان.[1]

نجد أن هذا المعنى قد ساقه العديد من الكتاب المعاصرين عند تعريفهم لهذه الكلمة، فمثلا تذكر ماري إلياس بأن « الخطاب في اللغة العربية هو ما يكلّم به الرجل صاحبه، وأصله من فعل خَطَبَ وخَاطَبَ خِطَاباً، بمعنى كَالم، ويقابله باللغات الأجنبية Discours وهو في المعنى العام والشائع للكلمة النص الذي يقال للآخرين شفهيا أو كتابيا بهدف عرض فكرة ما أو شرحها أو الإقناع بها »[2]، وإن كانت هذه الكلمة تخالف الخطاب في الوجود النصي من جهة، وفي وجود المرسل والمرسل إليه من جهة أخرى.

كما تمّ اشتقاق العديد من المعاني في أصل كلمة خطب من أهمها:

– نقول خطب الخاطِبُ على المنبر، فكلمة خطب اسم جنس أطلق على نوع مخصوص من الكلام له أصوله وقواعده، ورجل خطيبٌ أي حسن الخطبة، وجمع الخطيب الخطباء.[3]

– الخِطَابُ ومعناه في اللغة توجيه الكلام للغير من أجل الإفهام، ويمكن أن يكون على ثلاثة حالات هي:

* الخطاب اسم مصدر مشتق من خاطب، وهو ما ينجزه المخاطِبُ من كلام ويوجهه للغير.

* الخطاب اسم جنس يطلق على اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

* يمكن أن نعوض كلمة خطاب بكلمات أخرى كالخطبة أو الرسالة أو القصيدة، فيعبّر به هنا بما يقع به التخاطب. [4]

– الشأن أو الأمر الذي تقع فيه المخاطبة سواء صغر الأمر أو عظم، فيقال: خَطْبٌ، وخُطُوبٌ، وقيل: هو سبب الأمر، ونقول: هذا خَطْبٌ جليل، وخطبٌ يسير. [5]

ذكر الخطاب في القرآن الكريم:

استعمل الشارع الحكيم كلمة خطاب في العديد من الآيات القرآنية، وقد أخذت كل واحدة منها دلالات معينة، وذلك على حسب السياق الذي وضعت فيه، فنجدها بصيغة المصدر مثلا في ثلاثة آيات هي :

قال تعالى : « وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ » [6] ، أي القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا اتساع ممل. وقال أيضا: « فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ » [7].

وقال كذلك: « رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَانُ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً » [8] ، بمعنى لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص في العذاب أو زيادة في الثواب. [9]

كما جاءت كلمة خطاب بصيغة الفعل في ثلاث آيات أخرى هي:

في قوله تعالى : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً » [10]، وفي قوله عزّوجلّ: « وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُوا » [11]، وقوله أيضا: « وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» [12]، بمعنى لا تدعُني في شأن قومك .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1-3 الخطاب اصطلاحا:

يعرف كل من باتريك شارودو ودومينيك منغونو الخطاب بأنه « كان مستعملا في الفلسفة الكلاسيكية، حيث تقابل المعرفة الخطابية عن طريق تسلسل الأسباب المعرفة الحدسية، وكانت قيمته إذ ذاك قريبة من اللوغوس Logos اليوناني »[13]، وقد شاع انتشاره في ميدان اللسانيات والتيارات التداولية الحديثة.

لقد قدم دومينيك مانغونو تعريفا آخر شاملا للخطاب، كثيرا ما نجده يتداول في تحليل الخطاب، ذلك أن هذا التعريف يتناول مصطلح الخطاب من ناحية المدلول اللغوي، أكثر مما يدل على حقل بحثي محدّد، «فاللغة في الخطاب لا تعدّ بنية اعتباطية بل نشاطا لأفراد مندرجين في سياقات معينة، والخطاب بهذا المعنى لا يحتمل صيغة الجمع، يقال الخطاب ومجال الخطاب ...إلخ، وبما أنه يفترض تفصل اللغة مع معايير غير لغوية، فإن الخطاب لا يمكن أن يكون موضوع تناول لساني صرف».[14] كما أن مصطلح الخطاب يدخل اليوم في سلسلة من التقابلات التي تكتسي قيما دلالية مختلفة[15]، وهي :

الخطاب هو جملة: لأنه يتكون من وحدة لغوية قوامها سلسلة من الجمل.

الخطاب هو ملفوظ: لأنه يشكل وحدة اتصال مرتبطة بظروف إنتاج معينة.

الخطاب هو لغة: خاصة إذا كانت اللغة من حيث هي نظام من القيم المقدرة مخالفة للخطاب واستعمال اللغة في سياق بعينه، الذي يحدد في الوقت نفسه قيمه، أو يستشير قيما جديدة.

2- الخطاب الدرامي والخطاب المسرحي: خطاب الأحادية أم الثنائية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قبل أن نقوم بتعريف الخطاب الدرامي والخطاب المسرحي، لا بد لنا قبل ذلك أن نقدم نظرة مختصرة لمصطلح الدراما ومصطلح المسرح، خاصة وأن لهما دورا كبيرا في فهم معنى الخطابين، إما من ناحية الشكل أو من ناحية المضمون.

* بالنسبة لكلمة "الدراما" فهي ذات أصل يوناني قديمDRAN ويقصد بها الحركة أو الفعل أو العمل، وهي سلسلة الأحداث التي تشكل النص،وقد عرفها أرسطو بأنها «محاكاة لفعل إنسان»[16]. وحسب ماري إلياس فإن من بين مدلولات الدراما أنها «تطلق على كل الأعمال المكتوبة للمسرح مهما كان نوعها، فيقال الدراما الإليزابثية، ودراما عصر التنوير، والدراما الرومانية، والدراما الطبيعية، أو الدراما الهندية»[17]. وحسب الدكتور إبراهيم حمادة فإن كلمة دراما تأخذ مدلولين لا غير:

«1– النص المستهدف لعرضه فوق خشبة المسرح أيا كان جنسه أو مدرسته أو نوعية لغته، ويقلّد أدوار شخصياته ممثلون يقومون بتأدية الفعل ونطق الكلام.

2– المسرحية الجادة ذات النهاية السعيدة أو الأسيفة (أي المأساة والملهاة) والتي تعالج مشكلة هامة علاجا مفعما بالعواطف، على ألا يؤدي إلى خلق إحساس فجيعي مأساوي»[18].

أما في الفترة المعاصرة أصبحت كلمة دراما تطلق على نوع مسرحي واحد،«وصارت تغطي أشكالا من الكتابة المسرحية يربط بينها وجود الفعل الدرامي، والأزمة، والصراع بين الإنسان، وقوى متنوعة ومختلفة»[19]، أي هي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عبارة عن نوع من الخيال المصمم للتمثيل المسرحي، والمبنى على أساس اتفاقيات والتزامات درامية خاصة.

* أما فيما يخص كلمة "مسرح"، فقد تشعبت وتعددت الكتابات والمعاجم في تعريفها، وضبط مدلولها، ابتداء من التعريفات التي ساقها أرسطو طاليس في كتابه "فن الشعر" إلى يومنا هذا. ولا يسعنا المقام هنا أن نذكرها كلها وبالتفصيل، بل سنذكر الأهم منها، خاصة تلك التي نراها مناسبة في فهم معنى الخطاب المسرحي.

فكلمة مسرح[20] Théâtre مشتقة من الكلمة اليونانية Theatran والتي تدل على مكان الرؤية، «ومع ذلك فقد اتسع نطاق هذا المصطلح واشتقاقاته العديدة، التي تولدت عن كلمة مسرح، ليغطي كافة مجالات الفنون المسرحية، من حيث المسرح كبناء، ومن حيث الخشبة التي يلعب عليها الممثلون أدوارهم»[21] .ذلك ما نجده في المعجم المسرحي أين أخذت كلمة مسرح دلالات عدة عبر التاريخ من أهمها[22]:

– فهي إما أن تدلّ على شكل من أشكال الكتابة، وبالتالي على جنس أدبي.

– أو تدلّ على المكان الذي يقدم فيه العرض أي (المسرح)، وهو الارتباط الذي ظل مصاحبا لهذه الكلمة منذ الفترة اليونانية، أي مكان الرؤية والمشاهدة.

– تستخدم كذلك إما على مجمل أعمال أو إنتاج كاتب مسرحي، أو على عصر معين، أو مدرسة معينة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بصفة إجمالية فإن كلمة مسرح تدل في معناها العام والمتداول «على ذلك النشاط الجماعي التكاملي الذي يتحقق من خلال اتحاد وتناغم مجموعة من العناصر، يمثل النص اللغوي الحواري المنطوق إحداها فقط، وتتضافر جميعها لإنتاج التجربة المسرحية»[23].

من خلال ما تم ذكره عن الدراما والمسرح يمكن القول بأن هناك فارقا واضحا بين النص الدرامي والنص المسرحي، فالنص الدرامي هو نص أدبي ينبيه الكاتب « انطلاقا من المخيلة ليهندس عملا إبداعيا يرسم زمنه ومكانه أو أمكنته، ويسرح بمخيلته ليخلق نماذج بشرية تأخذ من واقع هذا الكاتب، وربما من محيطه، أو من مجتمعه، أو من غير مجتمعه »[24] ، أما الخطاب المسرحي فهو خطاب ذو طابع أدبي من جهة، وذو طابع مسرحي من جهة أخرى، وذلك أنه يمكن أن ينقله المخرج من نص مقروء إلى نص ممسرح على الخشبة بواسطة ممثلين، إذا هو « مجموعة الوسائل التي تجعل للعرض المسرحي ممكنا يقوم على المعنى المنتج من مجموعة العلاقات والعناصر المتجانسة الموحدة في العرض المسرحي، فهو خطاب ذو بنية حوارية تقوم على تعدد صوتي ودلالي وفني يحمل آثار خطابات سابقة، أو متزامنة أو متولدة »[25] .

إن الفرق بين الخطابين يكمن في طبيعته لا غير، فالأول يعدُّ خصيصا للاستهلاك من طرف القرّاء مع ارتباطه بالمتكلم والمستمع وروابطهما المباشرة في الزمان والمكان، أما الخطاب الثاني فهو الذي يسوقه المخرج نحو خشبة المسرح بواسطة متخيلته، وأداء الممثلين، وتذوق الجمهور.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[1] – للمزيد أنظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ط1 ، المجلد 2 ، الجزء 14 ، الحاء–الخاء–الدال ، دار المعارف ، القاهرة ، د ت ، ص 1195 .

[2] – ماري إلياس ، حنان قصاب حسن ، المعجم المسرحي– مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض (عربي– انجليزي– فرنسي) ، ط1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، 1997 ، ص 186 .

[3] – للمزيد أنظر : ابن منظور ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

[4] – للمزيد أنظر : بسمة بلحاج وآخرون ، مقالات في تحليل الخطاب ، تقديم حمّادي صمود ، د ط ، د ت ، ص 03.

[5] – للمزيد أنظر : محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، د ت ، مادّة (خطب).

[6] – سورة ص الآية 20 .

[7] – سورة ص الآية 23 .

[8] – سورة النبأ الآية 37 .

[9] – للمزيد أنظر : هاجر مدقن ، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه– قراءة في كتاب المساكين للرافعي ، ط1 ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 1434هـ –2013م ، ص 24.

[10] – سورة الفرقان الآية 63 .

[11] – سورة هود الآية 37 .

[12] – سورة المؤمنون الآية 27 .

[13] – باتريك شارودو– دومينيك مانغونو ، معجم تحليل الخطاب ، ترجمة عبد القادر المهيري–حمادي صمود ، منشورات دارسيناترا ، المركز الوطني للترجمة ، تونس ، 2008 ، ص 180.

[14] – دومينيك مانغونو ، المصطلحات والمفاتيح لتحليل الخطاب ، ترجمة محمد يحياتن ، ط1 ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 1428هـ–2008م ، ص 38.

[15] – للمزيد أنظر : المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[16] – عبد المجيد شكري ، الدراما الإذاعية –فن كتابة وإخراج التمثيلية الإذاعية–دراسة نظرية ونماذج تطبيقية، ط2 ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1424هـ–2003م ، ص20.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اختلفت الآراء والتفسيرات في تحليل هذا القول لأرسطو، بأن الدراما هي محاكاة لفعل إنسان، غير أنهم اتفقوا على أنها تتكون من خمسة عناصر جوهرية هي:

1–حكاية.

2–تصاغ في شكل حدثي.

3–وفي كلام له خصائص معينة.

4–ويؤديها ممثلون.

5–أمام جمهور.

للمزيد أنظر: إبراهيم حمادة، معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية، درا المعارف ، القاهرة ، 1981 ، ص 113.

[17] – ماري إلياس ، حنان قصاب حسن ، المرجع السابق ، ص 194.

[18] – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[19] – ماري إلياس ، حنان قصاب حسن ، المرجع السابق ، ص 197.

[20] –

[21] – عبد المجيد شكري، المرجع السابق ، ص19.

[22] – للمزيد أنظر: ماري إلياس ، حنان قصاب حسن ، المرجع السابق ، ص ص 422، 423.

[23] – نهاد صليحة ، المسرح بين النص والعرض ، هيئة الكتاب– مكتبة الأسرة ، القاهرة ، 1999 ، ص 11.

[24] – ليلى بن عائشة، بنية الخطاب المسرحي العربي المعاصر بين ثنائية التجريب والإبداع– دراسة انتقائية لنصوص وعروض من المسرح العربي ، أطروحة دكتوراه غير منشوره ، جامعة وهران، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم الفنون الدرامية ، وهران ، 2010 ، ص 61.

[25] – علي عواد ، تعدد الأصوات في الخطاب المسرحي ، مجلة الدراما ، عمان ، الأردن ، العدد 1 ، 1996 ، ص 35 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com